المسلمون في الجنوب الأفريقي
نجاحات الماضي وتطلعات المستقبل

د. آدم بمبا

يستهدف هذا المقال ما يتوقع التوصل إليه بإذن الله من استكشاف بعض جوانب المدِّ الإسلاميِّ في منطقة الجنوب الأفريقيِّ، وما حققه من إنجازات حضاريَّة في هذا الجزء من القارَّة الأفريقيَّة، وبالتالي ما يمكن أن يُحقِّقه المسلمون في الحاضر والمستقبل من إنجازات بناءً على تلك المعطيات. ولا شكَّ أنَّ لمثل هذه الدِّراسة أهميَّة في التعرف على تاريخ الإسلام بالقارَّة؛ لكون هذه المنطقة ثالثة المنافذ الرَّئيسة التي نفذ منها الإسلامُ إلى عمق القارَّة الأفريقيَّة.[1]

يقع الجنوب الأفريقيُّ بين المحيط الهنديِّ والمحيط الأطلسيِّ، وهي منطقة مترامية تضمُّ في الجغرافيّة السِّياسيَّة الحديثة دُولاً كثيرةً مثل: بتسوانا، وجمهوريَّة جنوب أفريقيا، وزامبيا، وزيمبابوي، وسوازيلاند، وليسوتو، وملاوي، وموزمبيق، وناميبيا. ويُطلق بعض الجغرافيِّين على هذه المنطقة مصطلح «جنوب ليمبوبو» (Limpopo)، أو ما وراء نهر «زامبيزي» (Zambezi).[2]

تتميَّز هذه المنطقة بتنوع المناخ، ففي الجزء الشَّرقيِّ منها المحاذي للمحيط الهنديِّ تمتدُّ الغابات الاستوائيَّة، وسلاسل جبال «دراكنسبرغ» (Drakensberg) الوعرة، وتمتدُّ في الجزء الغربيِّ منها صحراء كلاهاري، وصحراء كارو. وفي الجزء الشَّماليِّ منها أنهارٌ كبرى مثل: نهر ليمبوبو، ونهر أورنج (Orange)، ونهر زامبيزي. وتعيش في منطقة الجنوب الأفريقيِّ قبائل رعويَّة وزراعيَّة عديدة أكبرها: الخويّ سان (Khoisan)، الخوسا (Xhosa)، سونغا (Tsonga)، السوتو (Sotho)، سوانا (Tswana)، الزُّولو (Zulu)، وناما (Nama). وتعيش نسبة (٩٠٪) من سكَّان هذه المنطقة في الجزء الشَّرقيِّ منها.[3]

١) المنفذ الأوَّل هو الشرق الأفريقي. وكان النفوذ الإسلامي الأول منه منذ العهد النَّبوي. متمثِّلاً في الهجرة الأولى إلى الحبشة. والمنفذ الثاني هو الشمال الأفريقيّ. وعبر فيه الإسلام الصَّحراء الكبرى إلى غرب أفريقيا. وبذلك يكون المدُّ الإسلاميُّ في أفريقيا أشبه بكائن حيٍّ يُطوق هدفه من جميع جوانبه. ويحكم به قبضته.

2) See for instance: J. D. Fage, Roland Anthony Oliver (ed). The Cambridge History of Africa, (Cambridge University Press, 1986), p567.

3) Elizabeth Isichei, A History of African Societies to 1870,

العرب والمسلمون والجنوب الأفريقي:

عرف الجغرافيِّون العرب والمسلمون منطقة الجنوب الأفريقي قبل التَّطوُّر الملاحيِّ في القرن الخامس عشر الميلاديِّ، وكانت تُسمَّى في أدبيَّاتهم الجغرافيَّة والتَّاريخيَّة ببلاد «ما وراء سفالة» (Sufala)، أو «الواق واق». و(سفالة). كما قالوا: آخرُ مدينةٍ تُعرف بأرض الزِّنج، وكانت مشهورة لدى العرب بالذَّهب، حتى إنَّهم أضافوها إلى المدينة فقالوا (سفالة الذَّهب). وفيها تُذكر قصَّة التُّجار العرب الأوائل الذين كانوا يجلبون الأمتعة إلى السُّكان المحلِّيين، فيتركونها على الشَّاطئ ويمضون، فيأتي السُّكان فيأخذونها ويضعون ثمنها ذهبًا خالصًا، فيأتي التُّجار ثانيةً ويأخذون الذَّهب.[١] وقد أوضحوا أنَّ أرض سفالة متَّصلة بأرض الواق واق، وهي جنوب أفريقيا اليوم، وذلك واضحٌ في قول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في وصفه للأقاليم: «... ثم بلد مقديشو، ثم بلد سفالة، وأرض الواق واق، وأممٌ أخر ليس بعدهم إلا القفارُ والخلاء».[٢] وقد توَّج الإدريسيُّ ذلك كلَّه برسمه لخارطة العالَم عام (٨٠٤هـ/١١٥٤)، التي تُعدُّ أوَّل خارطة مفصَّلة للكرة الأرضيَّة، وفيها رسمٌ شبه دقيقٍ للجنوب الأفريقيِّ.

عليه، يتأكَّد أن الجغرافيِّين العرب والمسلمين، قد عرفوا هذه المنطقة، وخاض بعضهم بعض أرجائها كالمسعودي مثلا. أمَّا سفالة التي كانت مقصدهم، فما زالت موجودة بهذا الاسم، وهي ميناءٌ في موزامبيق، وتعدُّ جزءًا من منطقة الجنوب الأفريقيِّ.

أما عن علاقة سكان تلك المنطقة القديمة بالعرب والمسلمين، فلم يخلُ مصدرٌ تاريخيٌّ أو جغرافيٌّ تناولَ هذه المنطقة بالحديث، عن الإشارة إلى تلك العلاقات، من ذلك قول المسعودي: «أهل المراكب من العمانيِّين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزِّنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزِّنج».[٣] وقنبلو تلك يغلب الظنُّ أنَّها جزيرة مدغشقر الحاليَّة، وقد ذكر المسعودي في موضع آخر أنَّ المسلمين يحكمون بها. قال: «... فيها خلائق من المسلمين يتوارثونها ملوك من المسلمين، يقال لها قنبلو».[٤]

هذا عن العلاقات العربيَّة والإسلاميَّة المباشرة من قِبَل الشَّمال (جزيرة العرب)، ومن شرق أفريقيا، مع منطقة الجنوب الأفريقي. أما عن التَّأثير الإسلاميِّ القادم من الشَّرق (بلاد الجاوة)، فليس بين المؤرِّخين أو الأنثربولوجيِّين (المختصون بعلم الإنسان) أو غيرهم من الباحثين في الحقول العلميَّة المختلفة، خلافٌ في التَّأثير الأندونيسيِّ في تعمير جزيرة مدغشقر والسَّواحل الأفريقيَّة القريبة منها، فقد كان تعميرها، كما يقول المؤرِّخ ريموند كانتْ (Raymond Kent)، والمؤرِّخ ديكامب (Dechamps).[٥] منذ القرن الرَّابع الميلاديِّ حيث وفدت سفنٌ تحمل جماعات من الشُّعوب الأندونيسيَّة، ولغتهم المالاجاسي، واستقرَّت بالجزيرة،[٦] وما زالت العلاقات التِّجاريَّة والثَّقافيَّة متواصلة منذئذٍ، إلى ظهور الإسلام، وانتشاره بأرض الجاوة، فكانت الجاوة رافدًا من روافد الإسلام وثقافته إلى جزيرة مدغشقر.

١) الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان. (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ٢٢٤/٣.
٢) ابن خلدون، المقدمة، ٧/١.
٣) مروج الذهب، مصدر سابق، ص٤٠.
٤) المصدر السابق، ص١٧٤.
5) Fernand Braudel, Siân Reynolds, Civilization and Capitalism 15th-18th Century, (CA: University of California Press, 1992), p13.
٦) ماكيفيدي كولين. أطلس التاريخ الأفريقي. ترجمة مختار، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧)، ص١٩.

■ قدم وعمق التأثير الإسلامي في الجنوب الأفريقي:

أثبتت دراسات أنثربولوجيَّة (في علم الإنسان) وتاريخيَّة حديثة، خطأ المزاعم التي تقول بأنَّ التَّأثير الإسلاميَّ في شرق أفريقيا، بقي في السَّواحل فحسب، دون النُّفوذ إلى العمق الأفريقيِّ. ومن النَّماذج التي أوردها الباحثون في الجنوب الأفريقيِّ، نموذج المدينة الأثريَّة القديمة «زيمبابوي الكبرى» (Great Zimbabwe)، وقبائل أفريقيَّة غير ساحليَّة، وجُدت بينها مظاهر إسلاميَّة عدَّة. وهذا ماسيتم الوقوف عند بعضه في الفقرات التالية.

أوَّلاً: زيمبابوي الكبرى والحفريَّات الأثريَّة:

تعدُّ الكشوف الأثريَّة في زيمبابوي الكبرى من أهمِّ الكشوف المعاصرة التي غيَّرت كثيرًا من المفاهيم عن تاريخ منطقة الجنوب الأفريقيِّ، وهي مدينةٌ أثريَّة قديمةٌ تقع على بُعد (١٧) ميلاً جنوبيَّ شرق زيمبابوي الحاليَّة، أي غير بعيدٍ عن مدينة سفالة السَّالفة الذِّكر، اكتشفها المستكشف الألماني كارل م. (Carl Mauch) عام (١٨٧١م). وتمتدُّ على مساحة (٧٠٠ هكتار) بأكثر من تسعين ألف بيت.[1]

تأتي أهميَّة هذا الموقع الأثري في تأكيده على العلاقات التِّجاريَّة والثَّقافيَّة التي ربطت هذه الحاضرة في فترة أوْج ازدهارها (من القرن الثَّالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي) بالمدن التِّجاريَّة وممالك الطِّراز الممتدَّة على السَّواحل الأفريقيَّة، وكذلك المراكز التِّجاريَّة في الهند، والصِّين، والجزر الأندونيسيَّة.

وتوَّج المؤرِّخون المكتشفات الأثريَّة فيها بدراساتٍ تاريخيَّة أثبتت وجود نشاطٍ تجاريٍّ بين هذه المدينة وبين مدينة كلوة خاصة.

بالإضافة إلى ما ثبت تاريخيًّا من وجود تجارٍ سواحليِّين مسلمين قطنوا مدينة زيمبابوي الكبرى، وكان لهم نفوذٌ على ملوكها.[2] بل خلُص غير أولئك إلى القول بوجود عرب ومسلمين نزحوا إلى تلك المنطقة واستوطنوا بها بشكل دائم، وذلك منذ القرن الرَّابع عشر الميلاديِّ تقريبًا.[3] ومثَّلت مدينة زيمبابوي الكبرى – في هذا التَّبادل التِّجاريِّ الثَّقافي- الواسطة بين العمق الأفريقيِّ الشَّاسع، وبين العرب والمسلمين. وقد أكَّد ذلك نماذج حجريَّة معماريَّة أخرى اكتُشفت في المنطقة الجنوبيَّة من بوتسوانا الحاليَّة (Makgadikgadi)، وهي تمثِّل المنطقةَ الوسطَ في الجنوب الأفريقيِّ، ممَّا حمل الباحثين على القول بأنَّها تؤكِّد أنَّ الاختراق الإسلاميَّ قد بلغ منذ ذلك العصر أواسط تلك المنطقة التي كانت شهيرة بتجارة العاج وصناعته.[4]

ثانيًا: الدِّراسات الأنثربولوجيَّة (علم الإنسان).

الدِّراسات التَّاريخيَّة والأنثربولوجيَّة الحديثة تؤكِّد أنَّ المدَّ الإسلاميَّ من الشَّمال إلى العمق الجنوبي، فيما وراء منطقة (Soutpansberg) الموجودة في جمهوريَّة جنوب أفريقيا الحاليَّة، كان منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي. وهذا ما تثبته شواهد لغويَّة من السَّواحليَّة العربيَّة توغَّلت في اللُّغات المحليَّة نحو الجنوب الأقصى حتى بلغت نهر سانت جونز في سواحل (Pondoland)، بترانسكايْ (Transkai)، بالإضافة إلى فلولٍ من القبائل المحليَّة الأفريقيَّة من بطون قبائل شونا القاطنة في المناطق الجنوبيَّة من زيمبابوي الحاليَّة، وقبائل

(1) Philip, Curtin. African History from Earliest times to Independence, (London: Longman, 2nd. Ed. 1995), p250-251.

(2) Peter S. Garlake. Early Art and Architecture in Africa, (Oxford University Press, 2002), p184.

(3) Timothy, Insoll. The Archeology of Islam, p368.

(4) Ibid, p364.

(Venda) وسوتو، وتونغا في منطقة ترانسفال (Transvaal)، الواقعة شماليَّ جمهوريَّة أفريقيا الجنوبيَّة، ويُجمع هذا الشَّتات القبلي لدى المؤرِّخين تحت مسمَّيات ثلاث هي: ليمبا (Lemba)، وفاريمبا (Varemba)، وباليمبا (Balemba)، التي سمَّاها الباحث إبراهيم موسى «قبائل أفريقيَّة مسلمة»، الذي أوضح أنَّ الدِّراسات الأنثربولوجيَّة الدِّينية قد فوجئتْ بوجود بعض الممارسات والمظاهر الثَّقافيَّة بين تلك القبائل تؤكِّد -بلا أدنى شكٍّ- أخذ تلك المظاهر من الشعائر الإسلاميَّة، هذا فضلاً عن انعكاسات لغويَّة للغة العربيَّة -غَيْر السَّواحليَّة- في لغات أولئك.[1]

بناء على ما تقدم، يمكن الاطمئنان إلى القول بأنَّ المدَّ الإسلاميَّ قد وصل إلى العمق الأفريقيِّ في فترة من الفترات، ولكن عدم متابعة هذا المدِّ، وإذكاء جذوته، قد أفضى إلى ضعفه حتى سهُل على المنكرين إنكار وجوده.

ثالثًا: قبائل ياوْ والإسلام:

الموطن الأصليُّ لقبائل الياوْ هو شمالي موزامبيق، ولكنَّها اليوم تنتشر في تنزانيا، والموزامبيق، وفي ملاوي خاصة، وقد انحدرتْ مجموعاتٌ كبيرةٌ منها إلى المناطق الشَّماليَّة من جمهوريَّة جنوب أفريقيا الحالية.

تمثِّل قبائل الياو (YAO)،[2] وجهًا آخر حيًّا للمدِّ الإسلاميِّ في العمق الأفريقي. وظاهرة فريدةً لانتشار الإسلام في الجنوب الأفريقيِّ؛ حيث كان إسلامُها إسلامًا جماعيًّا على غرار قبائل المادينغو والفولاني والهوسا في غرب أفريقيا. كان إسلام الياوْ نتيجة العلاقات التِّجاريَّة بينها وبين التُّجار المسلمين السواحليِّين منذ القرن السَّابع عشر الميلادي، فقد كان الكتبة والمستشارون في بلاطات زعماء الياوْ مسلمين، وهذا ممَّا سهّل إسلام أولئك الزعماء، ومن ثمَّ إسلام عامَّة الشَّعب. ويُذكر أن من أوائل أولئك الزُّعماء إسلامًا، الملك ماكانجيرا الثالث (Makanjira III).[3]

نتج عن الاحتكاك الطَّويل -كما يؤكِّد- المستكشف ليفيغستون (عام١٨٦٦)، تأثيرٌ سواحليٌّ واضح في أزياء قبائل الياو، وفي فنونها المعماريَّة، خاصَّة في عاصمتها (Mwembe)، وأكَّد ذلك الباحث ميتشل، والذي ذهب إلى أنَّ مساجد الياو، وبيوتها صورة أخرى لأصولٍ زنجباريَّة. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ هذه العلاقة التاريخيَّة المطوَّلة بين العرب وبين الياوْ قد تمخَّضت مؤخَّرًا في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي عن محاولة سالم بن عبد الله (عام١٨٤٠م) تأسيس مملكة في (Nkhotakota) على ضفاف نهر ملاوي، ومملكة أخرى أسَّسها شخص يدعى (Mlozi)، لكن القوات البريطانيَّة وأدت المحاولتَين، وقُبض على ملوذي وشُنق عام (١٨٩٥).[4] ومن هنا، فإنَّ المدَّ الإسلاميَّ في المناطق الشَّرقيَّة من الجنوب الأفريقيِّ، يعود إلى قبائل الياو. وهي كذلك - كما يقول الباحث بونْ- «أهمُّ مصدر لنشر الإسلام في ملاوي اليوم».[5]

رابعًا: قبائل أخرى في الجنوب الأفريقي:

على الرُّغم من التَّأخُّر النِّسبي في احتكاك شعوب جنوب أفريقيا الحقيقيِّ بالمسلمين ابتداءً من القرن السَّابع عشر الميلاديِّ، فإنَّ المصادر التَّاريخيَّة تفيد بأنَّ إقبالهم على

1) Ebrahim, Moosa. P130.

٢) نظرًا لانتشار قبال الياو في معظم أرجاء أفريقيا الشرقية والجنوبية، فقد تعددت أسماؤها. ومن ذلك: wayao و veiao، و adjao. وحصرت دراسة قديمة منذ ثلاثين عاما، تعدادها بأكثر من ثمانية ملايين نسمة. وأن أكثر من نصف هذا العدد مسلمون. ينظر: Richard V. Weekes (ed), Muslim Peoples: A world Ethnographic Survey, (Westport USA, Greenwood Press), p870.

3) Timothy, Insoll. The Archeology of Islam, p394.

4) Op. Cit. p393.

5) Bone, 1982, p130.

الإســـلام كان مرنًا وسلسًا، خاصَّة في القرنين الثَّامن عشـــر والتَّاسع عشـــر الميلاديين. وقد أثار ذلك توجُّس المســـتعمرين والمنصِّرين – كما يأتي بيانُه في فقرة الحديث عن الإســـلام بمستوطنة رأس الرَّجاء الصَّالح– ففي أواسط القرن التَّاســـع عشـــر الميلادي، أبدى بعضهم تخوُّفه من الإسلام قائلاً: «هناك خطرٌ حقيقيٌّ في انتشار الإسلام بين الزولو والباسوتو؛ لأنَّهم إن انخرطوا في صفِّ الإسلام، فإنَّهم سيغدون مـــن دعاتـــه... «.[1] وفي عـــام (١٩٠٠م) كتب الأب تومـــاس (T. Fothergill Lightfoot) في مذكراته «أنَّ كثيرًا من زعماء العشـــائر الزُّنوج قد اعتنقوا الإسلام».[2]

تدعونا هذه المعلومات إلى القول بأنَّ هناك حلقةً مفقـــودةً في تاريخ المدِّ الإســـلاميِّ في الجنوب الأفريقيِّ، ينبغي الكشف عنها؛ لمعرفة أسباب توقُّف هذا المدِّ قرابة قرن كامل.

وعلى كلٍّ، فإنَّ الدراســـات الحديثة تُجمع على تنامي الإســـلام في مجتمعـــات الجنوب الأفريقـــيِّ، ببُعدها الشَّـــعبي القبائليِّ خاصَّةً، ومما يستأنس به في هذا المقام، نموذج قبائل فاريمبا فـــي زيمبابوي وجنوب أفريقيا، وقبائل ناماكُوَا (Namaqua) في ناميبيا الحاليَّة.

١ – قبائل فاريمبا (VaRemba).

تتكوَّن قبائل الفاريمبا (وتسمَّى أيضًا فامْوِينْي VaMwenyi)، من تفرُّعات قَبليَّة عدَّة هي: فادُومبا (VaDumba)، فاتونْغا (VaTonga)، فانْياكافي (VaNyakavi)، وفاساريري (VaSariri). وتقطُن المناطق المتاخمة لمرتفعات نيانْغا (Nyanga) فـــي جمهوريَّة زيمبابوي، وتمتـــدُّ مناطقها حتى (Soutpansberg) جمهوريَّـــة جنـــوب أفريقيا الحاليَّة.

وكما ســـبق تحت فقرة: (ثانياً: الدِّراسات الأنثربولوجيَّة)، فـــإنَّ هذه القبيلة من القبائل التـــي أطلـــق عليهـــا بعـــض الباحثين صفة «قبائل أفريقيَّة مســـلمة»، تمثِّـــل حالةً فريدةً بين القبائل فـــي العُمق الأفريقـــيِّ بادِّعائها الانتماء إلـــى أصول عربيَّة، تقـــول الرِّوايات المحليَّـــة إنَّ جدَّهم كان عربيًّـــا، تزوَّج امرأةً من الشُّـــونا (Shona)، واستقرَّ بين الأفارقة، وكان ذلك في عصر ازدهار مملكة مونوموتابا (Monomotapa/Munhumutapa). وقـــد ذهب بعض الباحثين إلى التَّشـــكيك في ذلك، غير أنَّ آخرين يؤكِّـــدون الأصل العربيَّ لهذه القبائل. يقول الباحث بوســـلت (Posselt): «إذا حكمنـــا على الملامح الجســـديَّة لهؤلاء المحلِّيين، فإنَّ فيهم – بلا شكٍّ – دماءً ساميَّة، ولم يكن ذلـــك إلا نتيجـــة احتكاكهم القديم بالتُّجار العرب الذين اســـتقرُّوا في المناطق السَّـــاحليَّة، ثم توغَّلوا بعيدًا فـــي القارَّة».[3] وعلى كلٍّ، فـــإنَّ الفاريمبا تعـــد أهمَّ حاضنٍ وناقلٍ للإســـلام في عمق زيمبابوي الحاليَّة، ويتميَّزون بتبنِّي أســـماء عربيَّة، ومن زعمائها المعاصرين الشيخ آدم ماكْدا (Makda)، أول مؤسِّس لجماعة دعويَّة في زيمبابوي الحاليَّة منذ السَّبعينيَّات الماضية.

وإلى جانب دور قبائل الفاريمبا في نشـــر الإســـلام في زيمبابـــوي، كان هنـــاك حضورٌ ملموسٌ لمســـلمي ملاوي منـــذ عام (١٨٩٠م)، الذين قدمـــوا إليها لأعمـــال الزِّراعة ومناجم الذَّهـــب، وكذلـــك للهنود المســـلمين. وقد تم تأسِّـــيس مجلس وطني لأئمَّة زيمبابوي في عام (١٩٧٥م).[4]

(1) E. M. Wherry, Islam and Missions, (READ BOOKS, 2007), p15.

(2) Robert Shell, op. cit. p276.

(3) Pathisa Nyathi. Zimbabwe›s cultural heritage, (African Books Collective, 2005), p95.

(4) David Westerlund, Ingvar Svanberg, Islam Outside the Arab world, (Palgrave Macmillan, 1999), p114.

٢ – قبائل ناماكُوَا.

يرجع انتشار الإسلام في ناميبيا إلى قبائل ناماكُوَا، حيث لم يُسجَّل حضورٌ إسلاميٌّ ملموسٌ للإسلام فيها قبل أواخر التِّسعينيَّات الماضية، إلاَّ بعد اعتناق أحد السِّياسيِّين البارزين من الناماكُوا الإسلام، وهو السَّيد جاكوبس سلمان دامير في مؤتمر إسلاميٍّ بلوسوتو. وقد أحدث إسلامُ هذا الشَّخص حركةً دعويَّة نشطة ونموًّا مطَّردًا للمسلمين المحلِّيين في ناميبيا، خاصَّة بين أبناء قبيلته، وهي إحدى القبائل الثَّلاث عشرة في ناميبيا. وكالعادة، فإنَ النسبة الحقيقيَّة للمسلمين في ناميبيا غير متَّفق عليها، فالإحصاءات الرَّسميَّة ترفعها إلى سبعين ألفاً، ويحدِّدها بعض المسلمين بعشرين ألفًا من مجموع ٢ مليون نسمة بالبلاد وغير ذلك.[١] ولكنَّ هذه الأعداد جميعها، لها أهميَّة معتبرة في ظلِّ حداثة الإسلام بهذا البلد، باعتبار أن هذا المكان محطَّة بين الجنوب الأفريقيِّ، وبين الوسط الأفريقيِّ وغربيِّها على السَّواء.

■ المدُّ الإسلاميُّ في دُوَل أخرى في الجنوب الأفريقي:

لم يتم تناول المدِّ الإسلامي في هذه الدِّراسة، على حسب الدُّول القُطريَّة؛ لأنَّ التوزيع الدِّيموغرافي للقبائل لا يعترف بالحدود السياسيَّة، ولكنْ، -إكمالاً للصُّورة الكليَّة للمدِّ الإسلاميِّ بهذه المنطقة- لم يكن بدٌّ من تناوُل بعض الدُّول القُطريَّة الحديثة.

أوَّلا: بُتسوانا (Botswana).

لقد تقدَّم في فقرة: زيمبابوي الكبرى، أنَّ المدَّ الإسلاميَّ قد وصل إلى منطقة (Makgadikgadi) منذ القرن الرَّابع عشر الميلاديِّ، وهي منطقة داخل بتسوانا الحاليَّة، أمَّا في العصر الحديث، فيرجع المدُّ الإسلاميُّ في بتسوانا إلى العمَّال الهنود في مناجم الذَّهب منذ أواخر القرن التَّاسع عشر (١٨٩٠م)، لكنَّهم كانوا مثل المسلمين في رأس الرَّجاء قابعين تحت القمع الاستعماريِّ.

وفي أواسط القرن الماضي، ظهر الإسلامُ بقوَّة مع تنشيط أعمال المناجم، وتوافُد العُمَّال من ملاوي إليها، ومن دُوَل أفريقيا الغربيَّة، ويشير باحثون في دراسة منشورة (منذ عام ١٩٩٦م)، إلى أنَّ الإسلام في تنام مطَّرد في بتسوانا.[٢] وهذا ما أكَّدته دراسةً أخرى ظهرت في عام(٢٠٠٦م) وفيها ذهب ديمّبو إلى «أنَّ الإسلام يكسب أعدادًا كبيرةً من الأتباع، على الرُّغم من تأخُّر ظهوره في هذا البلد»، وعلَّل ذلك بتوافُق الإسلام مع أسُس المجتمع البطريركيِّ (النظام الأبوي) للأسرة في بوتسوانا».[٣]

ثانيًا: سوازيلاند (Swaziland).

بدأ الظُّهور الملموس للمسلمين في مملكة سوازيلاند، في حدود عام (١٩٦٣م)، وكان ذلك نتيجة تمازُج المحلِّيين بعُمَّال المناجم الملاويِّين المسلمين، كذلك كان للمسلمين الهنود من جنوب أفريقيا أثرٌ ملموس في المدِّ الإسلاميِّ في هذا البلد، وهو -مثل ليسوتو- دُوَيْلَة (صغيرة جدًّا) داخل جنوب أفريقيا (عدد سكانها مليون نسمة، ومساحتها ١٧ كلم٢). هذا، وقد اعتُرف بالإسلام دينًا في هذه الدَّولة، من قِبَل ملكها عام (١٩٧٢م)، وكان بناءُ أوَّل معهد إسلاميٍّ بمدينة (Ezulwini)، عام (١٩٨١م)،

(١) See: Rodrick Mukumbira, "Islam in Namibia. Making an Impact", http://newsgroups.derkeiler.com/ on: Sun, 4 Jun 2006.

(٢) See: Jeff Ramsay, Barry Morton, Fred Morton, Historical Dictionary of Botswana, (Scarecrow Press, ١٩٩٦).

(٣) James Raymond Denbow, Phenyo C. Thebe, Culture and customs of Botswana, (Greenwood Publishing Group), ٢٠٠٦, p٣٩.

وبها مؤسَّسات إسلاميَّة أخرى، تأثَّرت في تأسيسها وفي أنشطتها بالمدِّ الإسلاميِّ من جنوب أفريقيا.[1]

ثالثًا: ليسوتو (Lesotho).

لا يُعرف الكثير عن الإسلام في مملكة ليسوتو الحديثة، ولكنْ لكونها بلداً صغيرًا جدًّا (٣٠ كلم٢، وعدد سكَّانه ٢ مليون نسمة)، ووقوعها داخل جمهوريَّة جنوب أفريقيا، فإنَّ ظروفها لا تختلف كثيرًا عن ظروف جنوب أفريقيا.

وعلى ذلك، يُذكر أنَّ أوَّل من أسَّس مسجداً في ليسوتو، هو الشَّيخ صوفي صاحب (ت١٩١٠)، وكان ذلك في أواخر القرن التَّاسع عشر. ولعلَّ ما اشتُهر به هذا التَّاجر الدَّاعية من أعمالٍ اجتماعيَّة، أدَّى إلى نشوء مجتمع إسلاميٍّ من المحليِّين السُّود بمدينة (Butha Buthe). والطَّريف أنَّ هذه المجموعة من السُّود يتحدَّثون لغة هنديَّة، وليس لدينا تفسيرٌ لهذه الظَّاهرة إلاَّ شدَّة تمسُّك أولئك بالإسلام، واعتبار لغة شيخهم (الهنديَّة) هي لغة الإسلام، وبالتَّالي، تركوا لغتهم القبَليَّة لصالح اللُّغة الدِّينيَّة.[2]

وبعد، فإنَّ استعراض المدِّ الإسلاميِّ في هذه الدُّوَل، وفي تلك القبائل الموغلة في العمق الأفريقيِّ، الذي وقع منذ قرون عدَّة، يؤكِّد لنا عدَّة حقائق، منها:

- ❖ أنَّ الإسلام قد امتدَّ في الجنوب الأفريقيِّ، واخترق القارَّة من المحيط الهنديِّ إلى الأطلسيِّ في ناميبيا شمالاً، وفي رأس الرَّجاء جنوبًا.
- ❖ أنَّ المدَّ الإسلاميَّ في هذه المنطقة وفي سائر مناطق أفريقيا قد واكب التِّجارة، وسائر الأنشطة الإنمائيَّة. وفي الجنوب الأفريقيِّ، تركَّز ذلك في أعمال مناجم الذَّهب.
- ❖ أنَّ التَّفاعُل كان نشطًا بين قبائل المنطقة وشعوبها في نشر الإسلام. فكلُّ قبيلة تُسلم، تنقل الإسلام إلى من يليها، وهكذا دَوالَيك.
- ❖ أنَّ المدَّ الإسلاميَّ -قديمًا وحديثًا- في ازديادٍ وتوسُّع، رغم ضآلة الجهود الدَّعويَّة في الوقت الرَّاهن، وما ذلك إلاَّ نتيجة الانقياد السَّهل والسَّلس للشُّعوب الأفريقيَّة إلى الإسلام لسماحته وبساطته وموافقته فطرة الإنسان.

■ الحضور الإسلاميُّ في رأس الرَّجاء وفي جنوب أفريقيا:

يُرجع المؤرِّخون الوجود الإسلاميَّ الأوَّل برأس الرَّجاء (كيبْ تاوْن) إلى عام (١٦٥٢م)، حين أقامت الشَّركة الهولنديَّة في الهند الشَّرقيَّة (DEIC) - التي كانت تستحوذ على التِّجارة في المحيط الهندي- مستوطنةً في رأس الرَّجاء؛ لتكون محطَّة للاستراحة ولتموين السُّفن التِّجاريَّة، وذلك بعد حروبٍ ضروس، واجتياح للسَّلطنات الإسلامية الواقعة آنذاك في هذا المحيط.

وكذلك ووجه الهولنديُّون والبرتغاليُّون بمقاومة عنيفة في رأس الرَّجاء منذ اكتشاف هذه النُّقطة للعبور إلى آسيا، ولمواجهة تلك الثَّورات المحليَّة، يُذكر أنَّ القبطان (Jan Van Riebeeck) استقدم مجموعة من مسلمي (Mardyckers)، من أمبويا (Amboya) عام (١٦٥٨م)، وسُجِّلوا بالرَّأس بوصفهم «عبيدًا» مهمَّتهم حماية المستوطنة الهولنديَّة الجديدة من الثُّوار المحلِّيين. غير أنَّ أولئك «العبيد» المسلمين، لم يُعرف عنهم الكثير، ولا عن

(1) David Westerlund, Islam Outside the Arab world, op. cit. p114.

(2) Ibid, p115.

مدى تأثيرهم الدِّيني في المستوطنة الحديثة كيبْ تاوْن.[1]

إن بُعد هذه المنطقة عن الهند وعن الجزر الأندونيسيَّة، وأرخبيل الملايو، واختلاف سكَّانها عن الآسيويِّين، جعلها مكانًا مناسبًا ليتَّخذها المستعمر منفًى للثُّوار ضدَّ الهيمنة الاستعماريَّة في تلك المناطق، وبعض المناطق في غرب أفريقيا، وقد كان معظم أولئك المنفيِّين من علماء المسلمين، ومن الأئمَّة وقادة الجيوش والسلاطين. ومن أوائل مشاهير المشايخ والزُّعماء المنفيِّين إلى رأس الرَّجاء: السلطان عبد الرحمن متاهي شاه من سلاطين سومطرة، والشَّيخ عبد الله (van Batavia)، والشيخ سعيد العلوي (Aloewie van Mokka, ١٧٤٤)، والشَّيخ حاجي ماتارم (١٧٤٤)، والشيخ مدورا (١٧٥٤)، والشيخ توان السيد (حوالي ١٧٦٠)، والشيخ (Agmat Prins van Ternate, ١٧٦٦)، والجنا عبد الله (١٧٦٦)، وإمام عبد الله (١٧٨٠)، وإمام نور (١٧٨٠)، وإمام بدر الدين (Imam Patrodien, ١٧٨٠).

وعلى الرُّغم من النَّجاح الآني الذي حقَّقته تلك السِّياسة القاسية في الحدِّ من الثَّورات، وقطع نفوذ أولئك المنفيِّين في شعوبهم، فإنَّ الكيان الاستعماريَّ، بغير وعي منه، كان قد جعل من نفسه سببا لغرس بذرة الإسلام، ونشر الدَّعوة الإسلاميَّة في جميع البقاع التي نفى إليها الزُّعماء المسلمين.

■ المسلمون الهنود:

إلى جانب الحضور الإسلاميِّ في رأس الرَّجاء، كان هناك حضور آخر في أقصى الشَّرق من جنوب أفريقيا؛ حيث استقدم البريطانيُّون مجموعاتٍ من الهنود للعمل في حقول قصب السُّكر في كوازلو-ناتالْ، وفي ترانسفالْ شماليَّ أفريقيا الجنوبيَّة.

بعد إلغاء الرِّق (عام ١٨٣٨م)، وفدت مجموعات عبر الرحلات البحريَّة التي روَّجت لها بريطانيا تحت مسمَّى «المسافرون الأحرار» (Free Travelers) التي بلغ تعداد الأيدي العاملة فيها حوالي (١٧٦,٠٠٠ شخص)، وكان معظم أولئك من المسلمين.[2] ومن مشاهير الهنود الوافدين، الشَّيخ محمد إبراهيم صوفي، المشهور بـ «صوفي صاحب» (Soofie Saheb)، وقد وصل مدينة دوربانْ عام (١٨٩٦م)، وإليه يُعزى بناء جلِّ المساجد الأولى بتلك المنطقة، وبناء حضانات ومدارس للأيتام، ومشاريع اجتماعيَّة تكافليَّة كثيرة. ويُعزى إليه الظُّهور الأوَّل للإسلام في ليسوتو كما سبق.

■ المسلمون الزِّنجبار:

كان حضور العبيد المحرَّرين من الزنجبار بشكل جماعيٍّ إلى بورتْ ناتالْ، عام (١٨٧٣م)، وتتابعت أفواجهم حتى عام (١٨٨٠م)، وكان يُطلق عليهم «زنجباريُّون»، ويُصنَّفون عرقيًّا في السِّجلات الرَّسميَّة بوصفهم «آسيويّين آخرين» (Other Asians)، علمًا بأنَّهم كانوا من أصول مختلفة: عرب، وتنزانيين، وزنجباريين، وموزامبيق، وملاويين، وقمريين، وملجاش (مدغشقر). وتعدُّ تلك المجموعات أواخر المستقدمين.

يتبيَّن من خلال هذا الاستعراض أنَّ النُّزوح الإسلاميَّ إلى ما يُعرف الآن بجمهوريَّة جنوب أفريقيا، كان عمليَّة ممتدة في الزَّمان والمكان؛ حيث استمرت حوالي قرنَين ونصف

(1 Tayob, Abdulkader. Islamic Resurgence in South Africa, (Juta and Company Limited, 1995), p40.

(2 P. M. Holt Ann & K. S. Lambton Bernard. The Cambridge History of Islam, (Cambridge University Press, 1995) p404-405.

(١٦٥٢-١٨٨٠م)، وامتـدَّت جغرافيًّا من أبعد نقطة غربـيَّ البلاد (رأس الرَّجـاء) إلى أبعد نقطة في شرقيِّها (بورتْ ناتالْ)، جامعة أجناسًا كثيرة من المسـلمين من أقصى غرب أفريقيا إلى أقصى شرق آسيا.

وعلى الرُّغم من الظُّروف المماثلة للمسلمين في جنوب أفريقيا، فإنَّ المسلمين برأس الرَّجاء، الذين يُشـار إليهم بـ «ملايو الـرَّأس» (Cape Malays)، كان نصيبهـم مـن الاضطهاد -مع الأسـف- أوفَر، وتاريخهم مع النِّضال، والصِّراع من أجـل البقاء أطولَ من غيرهـم، وقد طوَّروا -بناءً على ذلك- استراتيجيَّات اجتماعيَّة كثيرة، تناسبُ تلك التَّحدِّيات التي واجهوها. وهذا ما يتمُّ الوقوف على بعض جوانبه في الفقرات التالية.

■ شخصيَّات وقادة إسلاميون أوائل في رأس الرَّجاء:

في الفقرات الآتية اسـتعراض لسِيَر بعض القادة والمنفيِّين السِّياسيِّين، وما قاموا به من جهودٍ دعويَّة برأس الرَّجـاء، وتكوين للمجتمع المسلم الجديد بها.

(١) راجا (سلطان) تامبورا.

هو عبد البصير سلطان تامبورا في الجاوة. نُفي هذا السُّـلطان إلى رأس الرَّجاء وسُـجن بسـجن (Castle)، عـام (١٦٩٧م)، ومن أهمِّ أعمـال راجا تامبورا نسـخه للمصحف كاملاً عن ظهر قلب، وكان لذلـك دلالة قويَّة، وتأثير ملموس في المجتمع، خاصَّة إذا اسـتحضرنا ظرف القمع والعداء الدِّيني من لَدُن المستعمر الذي كان يسـتهدفُ -في المقام الأوَّل- قطع المسـلمين عن كلِّ مصدر ديني، ويحظر على المنفيِّين حمـل كُتبهم، أو اسـتصحاب بعض تلاميذهم أو أتباعهم الرَّاغبين في اللِّحاق بهم في المنفى.

(٢) تُوان سعيد العلوي.

كان الشَّيخ توان سـعيد العلوي من العلماء اليمنيِّين، نُفي من أرض الجاوة إلى رأس الرَّجاء عام (١٧٤٤م) مع رفيقه حاجي ماتارِمْ. سُـجن الاثنـان مع غيرهمـا بجزيرة روبنْ الشَّـهيرة (Robben)، وقضى الشـيخ تـوان بها إحدى عشرة سـنة في عزلة تامَّة، وبعد الإفراج عنه، عمل بالشُّـرطة، وقيل إنَّـه وظِّف منصبه ذلك خير توظيف؛ فكان يحمل الطَّعام إلى السُّجناء والعبيد، ويُكثِّف دعوتـه بينهم، ويقصدهم في ضاحيتهم في دعوة سـريَّة اسـتقطبت الكثير من المحليِّين السُّـجناء والعبيـد من مختلف العرقيات.

(٣) الشَّيخ تُوانْ غُورو (ت١٨٠٧).

هو الشَّـيخ الإمام عبد الله بـن القاضي عبدالسلام، المشهور بـ «تُوانْ غورو» أي (السَّيد الأستاذ)، من الأمراء الأشراف في الجاوة. كان نفيه عـام (١٧٨٠م) إلى جزيـرة روبنْ أيضًا. له كتـاب «معرفة الإيمان والإسـلام» بالعربيّة والملايويَّة. ألّفه في السجن، واستهدف به تعليم المجتمع المسـلم أحكام الإسـلام الأساسيَّة، وقضايا العقيدة والإيمان العامَّة، وقد ظلَّ هذا الكتاب لمدَّة قرنَيـن مرجعيَّة مهمَّة في جنوب أفريقيا. بل تجاوزتْ شهرته إلى المسلمين في جنوب شرق آسيا، وشبه القارَّة الهنديَّة.

ويرجع الفضل إلى الشَّـيخ توان غورو في تأسـيس المدرسـة الأولى برأس الرَّجاء إثر الإفراج عنـه عام (١٧٩٣) بعد ثلاث عشـرة سـنة من الحبس، وبلغ عدد أطفال العبيد بها (٣٧٥طفلاً)، وحين رفض طلبُه في بناء مسجد، كان ردُّه بإقامـة أوَّل جمعةٍ في العراء في رأس الرَّجاء. وقد مثلت تلك الخطوة نقلة نوعيَّة في الخروج بالإسـلام من طور السِّـريَّة المطلقة إلـى الجهريَّـة، وإلى عهدٍ جديدٍ مـن الدَّعوة

الإســـلاميَّة ببعدها المجتمعيّ المنظَّم، وبذلك استحقَّ الشَّيخ توان غورو بجدارة لقب «مهندس الإســـلام في جنوب أفريقيا» الذي أطلقه عليه أكثر من مؤرِّخ.[1]

وبعـــد، فـــإنَّ ما يمكـــن اســـتخلاصُه من اســـتعراض حياة هؤلاء الزُّعمـــاء الأوائل، أنَّ الإسلام قد أفاد كثيرًا من خبراتهم، وشخصيَّاتهم القياديَّة، في إرســـاء البنيـــة التَّحتيَّة للمجتمع المســـلم في الجنوب الأفريقي، فكرًا وتطبيقًا، وبفضل شخصيَّات أولئك القادَة الفذَّة، والرؤى القيادية والحركيَّة (الجهادية)، التي تميَّزوا بها، قبل مجيئهم إلى مســـتوطنة الرَّجاء، فإنَّ العمل الإســـلاميَّ، قد وفَّر على نفسه حُقبًا زمنيَّة من الخطأ والمحاولة، وبـــدتْ بواكير ثمار الجهود منذ الجيل الأوَّل من المسلمين برأس الرَّجاء.

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ هؤلاء القادة الأوائل قد ضحوا تضحيات كبيرة، في ســـبيل الدَّعوة الإســـلاميَّة، مـــن ذلك إصرارهم علـــى البقاء بالمســـتوطنة بعد الإفراج عنهـــم، على الرُّغم من حرص المستعمر –ثانية– على رحيلهم عن المستوطنة، وكان هذا الخيارُ واضحاً كما صرَّح بـــه الباحث كيري واردْ، بنـــاءً على رؤية دعويَّة لدى أولئك المشـــايخ.[2] فضحُّوا بنشوة العودة إلى مسقط الرَّأس، من أجل الإسلام.

ومـــن الجدير بالذِّكر في هـــذا المقام، أنَّ سجن جزيرة روبنْ الذي ذاع صيته –على غرار غوانتنامو– كان المســـلمون الأوائـــل، أوَّلَ مَن دشَّنوه بأعمارهم، وبالسَّنوات الطِّوال فيه، وكان أحفادهم –من بعدهم– فـــي الصُّفوف الأوَّل، لكســـر بوَّابات هذا السِّجن وسلاسله في فترة حكم التَّمييز العنصري.

1) The Archeology of Islam, p375.

2) Kerry Ward. Network of Empire Networks of Empire: Forced Migration in the Dutch East India Company (Cambridge University Press, 2008), p209.

■ المسلمون في جنوب أفريقيا في ظل الاستعمار:

فـــي ظـــلِّ الإرث العدائيِّ للإســـلام لدى المســـتعمرين البرتغاليِّين والهولنديِّين، لم يكن يُتوقَّع أن تكون مستوطنة الرَّجاء الصَّالح مناسبةً للمسلمين الأوائل، بل كانت ابتلاءً لهم في ثباتهم وصبرهم على القمع وأعمال السخرة، وانتهاك الحريَّات.

بـــدأ الحظر على الإســـلام وعلـــى جميع مظاهره منذ أن وطئت أقدام السُّـــجناء الأوائل أرض مســـتوطنة الرَّجاء، فالمشـــايخ والأمراء المنفيُّون أطلق عليهم في ســـجلَّات السُّـــجون (bandieten) أي «مجرمـــون»، واســـتُحدثت قوانين تجرِّم كلَّ نشـــاطٍ علنيٍّ لشعائر الإسلام فقد أصدر المســـتعمر مرسومًا صارمًا يحظر أيَّ ممارســـة علنيَّة لشـــعائر الإسلام، وحددت عقوبة الشَّـــنق لمن يخالف هـــذا القانون، ثم أُكِّـــد هذا القانون بمراســـيم أخرى في العقود اللاَّحقـــة بالنصِّ علـــى عقوبة الشَّـــنق،[3] أو مصادرة ممتلكات كلِّ من يقوم بنشـــاط دعويٍّ بيـــن المحليِّين أو بيـــن المســـيحيِّين، وكانت تهمة «مبشِّـــر محمَّدي» (Mahometaanese priesters)، من أكبر التُّهم بالمستوطنة.

من أبشـــع الأحكام بهذا الصَّدد ما نفذ في عام (١٧١٢م) على داعية مســـلم جاويٍّ؛ حيث قُطع لسانُه، و أُحرق حيًّا، عقابًا له على «تبشيره بين الكفرة وعلى فعلته الجهنميَّة».[4]

لقـــد ظل هـــذا القانون ســـاريًا طوال قرن ونصف، حتى أُلغي في عـــام (١٨٠٤م) مع بقاء قيودٍ أخرى مثل ضرورة الحصول على إذن رسمي لبناء المساجد، والمدارس، وإقامة التَّجمُّعات.

3) Selim Argun, The life and contribution of the Osmanli Scholar, Abu Bakar Afendi, 2000, p. 4.

4) Robert Shell, "Between Christ and Mohammed...", in: Richard Elphick T. R. Davenport, Christianity in South Africa, (James Currey Publishers, 1997), p269.

بالإضافة إلى ذلك، قام المستعمر خلال قرن ونصف بإجراءات وسياسات كثيرة، من أجل قطع الطَّريق أمام أيِّ ظهور إسلاميٍّ، أو تأثير للمسلمين في رأس الرَّجاء وفي جنوب أفريقيا، مثل: فتح الباب على مصراعَيه للحركات التَّنصيريَّة، وتشجيع هجرات المسيحيِّين إلى المستوطنة. وفي الفقرات الآتية وقوفٌ عند بعض تلك الإجراءات ونتائجها.

أوَّلاً: سياسة الهجرات الجماعيَّة المسيحيَّة إلى رأس الرَّجاء:

على الرُّغم من الحظر المفروض على الإسلام وعلى جميع مظاهره، فإنَّ الإسلام قد ظلَّ في تنام مستمر، خاصَّةً بين العبيد، الأمر الذي أزعجَ المستعمر في رأس الرجاء؛ فأصدر مراسيم عدَّة (عام ١٧٦٧م، ١٧٨٨م، ١٧٩٢م) – عُمِّمت على شركات النخاسة –، بإيقاف تهجير العبيد من الملايو إلى رأس الرَّجاء.[١] وحتى تكتمل حلقات هذه السِّياسة الهادفة إلى تغليب المسيحيَّة على الإسلام، شجَّع المستعمرون الهجرات الأوربيَّة الجماعيَّة إلى المستوطنة، حتى بلغت نسبة المسيحيِّين الوافدين إلى المستوطنة عام (١٨٢٩م) ٢٧٪ من إجماليِّ عدد المستوطنين، بينما لم تتجاوز نسبة ذلك لدى المسلمين واحدًا في المائة، ولكن بالرغم من هذه السياسة فإن نسبة المسلمين المئويَّة من مجموع السُّكان بلغت (٥٧,٦٧٪).[٢]

ثانيًا: إنشاء إرساليَّة خاصَّة لتنصير المسلمين:

كان إنشاء إرساليَّة خاصَّة لتنصير «العبيد» المسلمين إيغالاً من المستعمر في طمس الوجود الإسلاميِّ برأس الرجاء، وعرفت تلك الإرساليَّة باسم: (The Anglican Mission to Moslems)، إلا أن تلك الإرساليَّة مُنيت بفشل مستمر طول قرن ونصف؛ لذلك حين نجح الأب بيك (Henricus Beck)، في تنصير «رجل مسلم»، وجَّهت إليه الإدارة الاستعماريَّة خطاب تقدير خاص بهذا «الإنجاز».[٣]

في مقابل ذلك، كان اعتناق الإسلام بين العبيد يتزايد، على الرُّغم من الحظر المفروض على الدَّعوة. ففي عام (١٨٢٩م) مثلاً، لاحظ المسؤول آنذاك عن تلك الإرساليَّة الأب ويليام إليوت أنَّ «نصف ملاجئ العبيد البالغة ثلاثة وثمانين في المستوطنة، هم محمديون».[٤] فكان إخفاق هذه الإرساليَّة مزدوَجًا؛ إذ لم تفلح في تنصير المسلمين، ولم تفلح كذلك في الحدِّ من إقبال العبيد على الإسلام.

ثالثًا: مسخ الهويَّات:

من الإجراءات التي رافقت محاولات تنصير المسلمين طمس هويَّاتهم، وإجبار المسلمين على تبنِّي أسماء برتغالية أو هولنديَّة، أو مسخ أسمائهم القديمة وتهجيها بطريقة تبعدها عن أصولها الإسلاميَّة، وهذا الأثر واضح في أسماء معظم المسلمين بجنوب أفريقيا إلى اليوم، فالاسم أحمد مثلاً يُكتب ويُقرأ عندهم (Agmat)، وبدر الدين (Patrodien)، وعبدالحميد (Abdolgamiet)، بالإضافة إلى أسماء كثيرة هي أسماء هولنديَّة خالصة؛ لذلك لا عجب إذا تمسَّك المسلمون بشدَّة في جنوب أفريقيا حتى الآن بالعقيقة، وشاعت بينهم أسماء مشاهير المسلمين في عصر الصَّحوة بعد الخروج عن ربقة التَّفرقة العنصريَّة، ولكنا نلاحظ أن كثيرًا من الأسماء الممسوخة –خاصَّة أسماء العوائل– قد استمرت عبر الأجيال، وأصبح من الصَّعب التَّخلي عنها.

(1) Bradlow, p20, in Shell, p42.

(2) Ebrahim Mahomed, Mahida. History of Muslims in South Africa: A Chronology, (SA: Arabic Study Circle, 1993).

(3) Richard Elphick, T. R. H. Davenport. Christianity in South Africa: a Political, Social, and Cultural History, (James Currey Publishers, 1997), p268.

(4) Robert Shell, op. cit. p269.

والحاصل، أنَّ جميع هذه السِّياسات والإجراءات عادتْ على المستعمر بالخيبة والفشل الذَّريع، واعترف كثيرٌ من السِّياسيِّين ورجال الدِّين المنصِّرين بهذا الفشل.

■ نجاحٌ دعويٌّ في رأس الرَّجاء:

على الرُّغم من أنواع الاضطهاد وسياسات القمع المشار إليها، فإنَّ النَّجاح الدَّعوي الأوَّل الذي يمكن تسجيله للمسلمين، لم يكن في احتفاظ هؤلاء المبعَدين المنقطعين عن أصولهم بعقيدتهم وثقافتهم الإسلاميَّة فحسب، ولكنَّه كان في كسب أتباع جُدد كُثر من العبيد والمحليِّين على السَّواء. فبينما بدأ الإسلام في رأس الرَّجاء ببضعة عبيد ومساجين من الملايو في أوَّل سفينة رست في رأس الرَّجاء عام (١٦٥٢م)، بلغ عددهم ثلاثة آلاف مسلم في (عام١٨٢٢م) أي بعد قرن ونصف تقريباً، وفي أواخر القرن التاسع عشرالميلادي (١٨٩١م) بلغ تعدادهم (١١,٢٨٧) شخصًا، وتلك أرقامٌ لا يُستهانُ بها في ظلِّ الكثافة السُّكانيَّة آنذاك برأس الرَّجاء، وفي ظلِّ ما كان قائمًا من الحظر على الإسلام بأبشع وسائل القمع.

لم يأت هذا النَّجاح من فراغ، وإنَّما كان – بعد توفيق الله – نتيجة وسائل وأسباب دعويَّة هادفة تبنَّاها الدُّعاة الأوائل، تحلَّوا فيها بحسٍّ اجتماعيٍّ مرهف نحو المجتمع الجديد، وتوسَّعت رعايتهم لاستقطاب العبيد غير المسلمين، بإيوائهم وتقديم الملاذ المعنويِّ والماديِّ لهم، وحمايتهم من أسيادهم الظَّلمة، وعقد الزِّيجات بينهم، واتباع جنائزهم، واهتمام المشايخ الزُّعماء بتعليم أطفال العبيد المحرَّرين مبادئ القراءة والكتابة، وغير ذلك من الحقوق التي حرمهم الكيان الاستعماري منها، وأحجمت الكنيسة بدَورها عن توفيرها لهم. بل إنَّ كثيرًا من العبيد، تقلَّدوا مراكز الإمامة والزِّعامة في المجتمع المسلم الجديد برأس الرَّجاء، فالشيخ أحمد بنْغَلين مثلاً، كان من تلامذة الشيخ تُوانْ غورو. تقلَّد القضاء والإمامة بالمستوطنة.

وفي أواخر القرن الثَّامن عشر برزت طبقة وسطى من التُّجار المسلمين في رأس الرجاء، وضربت أروَع المثل في الرِّعاية الاجتماعيَّة، وخاصة في تحرير العبيد، – مسلمين وغير مسلمين –، وقد شهد بذلك أكثر المؤرِّخين، يقول أحد المبشرين في هذا الصَّدد: «ولست أدري أيوجد بين الملايو قانونٌ يُلزمهم بتحرير العبيد... يجب الاعتراف للملايو، أنَّهم في مواقف كثيرة، خلال البيوع العلنيَّة، يشترون العبيد المسنِّين، والضَّعفة، بصرف النَّظر عن دياناتهم، ثم يحرِّرونهم».[1] وممَّا يدعو إلى التَّأمُّل أنَّ أوَّل مسجد برأس الرَّجاء (عام ١٧٩٨م) بُني على أرض وهبتها امرأةٌ من الإماء المحرَّرات، واسمها (viz Saartjie van de Kaap). وتوفيت عام (١٨٤٧م).[2]

في مقابل ذلك يورد المؤرِّخون نموذجًا طريفًا لشخص من السُّود، يُدعى مارت (Maart van Mosambiek) وكان من ألمع العبيد ثقافةً، وأشدِّهم إخلاصًا في العمل التَّنصيريِّ بين المحليِّين بجمعية لندن التَّبشيرية (London Missionary Society)، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يشفع له بأن يحظى بمجرَّد التَّعميد في الكنيسة، أو التَّحرر من العبوديَّة حتى وفاته.[3] ومنها أيضًا أنَّ عدد العبيد المسيحيِّين بلغ قرابة ألفين في أواخر عام (٢٤مكن المعمَّدين منهم كانوا (٨٦) شخصاً فقط، وسبب ذلك –

(1) 36-Robert Shell, p271, and Davids, 1991, p32

(2) Madeleine, Barnard. Cape Town Stories, (Struik, 2007), p58-.65.

(3) Robert Shell, p271. Karel, Schoeman. The Early Mission .in South Africa, (Indian: Protea Book House, 2005), p57

كما أوضحه الباحث (Bigge) أنَّ المستعمرين والمستوطنين، بما فيهم الكنيسة، كانوا ضدَّ «أيِّ إجراء يفضي إلى تضييق الفجوة بين الأسياد البيض وبين العبيد».[1]

إذنْ، لم يكن إسلام العبيد -في الواقع- إلاَّ نتيجة طبيعيَّة للرُّوح الأخويَّة والمعاملة الإنسانيَّة التي حفاهم بها المسلمون، ولم يكن هذا خاصًّا بالعبيد الذين وُصِفوا بأنَّهم «لا دين لهم»، وإنَّما شمل ذلك العبيد الذين كانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحيَّة، فكانوا سرعان ما ينبذونها حالَ تحريرهم؛ ليعتنقوا الإسلام، وليصبحوا دعاةً أوفياء إليه.

■ إسهاماتٌ حضاريَّة إسلاميَّة في جنوب أفريقيا:

لقد أسفرت الخبرة الإسلاميَّة في تاريخ الوجود الإسلاميِّ في جنوب أفريقيا، الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف، عن إسهامات حضاريَّة كثيرة في مختلف المجالات، يدينُ المجتمع الأفريقيُّ اليوم بها للمسلمين، من ذلك:

أوَّلا: في المجال الثَّقافي العلمي:

بحكم الإرث الثَّقافي للملايو في كتابة لغتهم بالحروف العربيَّة؛ فإنَّ العلماء والدُّعاة الأوائل لم يجدوا أيَّ إشكالٍ في متابعة التَّواصُل العلمي بالرُّموز العربيَّة، واعتمادها في كتابة الورقات والمنشورات القصيرة التي كان يكتبها المشايخ السُّجناء بالعربيَّة الجاويَّة، و «يهرِّبونها» إلى العامَّة.

ونظرًا للتَّعدد اللُّغويِّ للعبيد في رأس الرَّجاء؛ فإنَّ اللُّغة الدَّارجة بينهم أصبحت بمرور الزَّمن خليطاً من الهولنديَّة واللُّغة المحليَّة (الخوي-خوي)، وقليل من مختلف اللُّغات، وقد أخضع المشايخ هذا الشَّتات اللُّغوي الجديد للكتابة بحروف عربيَّة، فظهر ما يعرف بـ «الأفريكانْس»، وهو إنجاز لا يُستهان به من النَّاحية الحضاريَّة اللُّغويَّة، وقد طُبعت نصوص تعليميَّة ودعويَّة بهذه اللُّغة الجديدة عام (١٨٥٦م)، في حين لم يكن المستعمرون أنفسهم يعتبرون هذه اللُّغة جديرةً بالتَّداول على مستوى علميٍّ، ولكنَّ وضع رموزٍ كتابيَّة لها على أيدي المسلمين كان إيذانًا بفترة جديدة من الرُّقي اللُّغويِّ، ونشوء لغةٍ جديدةٍ، تعدُّ اليوم من اللُّغات العالميَّة المتداولة.

إن ما يفاجئ الباحثين في التُّراث الإسلاميِّ في جنوب أفريقيا، هو وفرة الكتب الإسلاميَّة المكتوبة بالعربيَّة الأفريكانيَّة، (بصرف النَّظر عن المنشورات العربيَّة الجاويَّة المذكورة)، وقد أحصَى بعض الدَّارسين المؤلَّفات القديمة التي وضعها العلماء الملايو فبلغت (٧٤) مؤلَّفًا، في قائمة أوليَّة فيما بين عام (١٨٥٦م)، وعام (١٩٥٧م).[2] وكان استهلال هذا النَّشاط التَّأليفيِّ بكتاب:

- «هداية الإسلام»، ويُذكر أنَّه أوَّل مؤلَّف بالعربية الأفريكانيَّة عام (١٨٤٥م).ومن المؤلَّفات الشَّهيرة كذلك:[3]
- كتاب: «تحفة العوام في أصول الإيمان وأركان الإسلام» للشَّيخ الإمام عبد القهار بن عبد الملك عام (١٨٦٨م)،
- وكتاب: «بيان الدين»، لأبي بكر أفندي،

(1) John, Edwin Mason, Social death and resurrection: slavery and emancipation in South Africa, (University of Virginia Press, 2003), p183.

(2) See: Muhammed Haron. "The Making, Preservation and Study of South African Ajami Mss and Texts", Sudanic Africa, (12), 2001, 1-14.

(3) See: Gerald, Stell. "From Kitab-Hollandesch to Kitaab-Afrikaans: The Evolution of a non-white Literary variety at the Cape 1856-1950," Stellenbosch Papers in Linguistics Vol. 37, 2007, pp89-127.

وهو في أصول المذهب الحنفي، نشـــر عام (١٨٧٧م) بالقسطنطينيَّة.

❖ وكتـــاب (Boek van Tougeed) أي: «كتاب التوحيد»، للإمـــام عبد الله بن عبد الرؤوف، عام (١٨٩٠م).

❖ وكتاب «ســـراج الإيضاح» فـــي قواعد الإســـلام والعبادات على المذهب الحنفي، مؤلِّفه الإمام هشـــام نعمـــة الله أفندي، عام (١٨٩٤م)، وله أيضًـــا كتاب: «هذا علم الحلِّ للصبيان»، وهو في الفقه التَّعليميِّ في أسس العبادات والزَّكاة.

❖ ومـــن الكتب المهمَّة في هـــذه القائمة كتـــاب «الرِّياض البديعة فـــي أصول الدين وبعض الفروع الشَّـــرعيَّة» عـــام (١٨٩٩م)، وموضوعه ظاهرٌ من عنوانه، للشَّـــيخ عبد الرقيب بن عبـــد القهار، وهو مترجمُ كتاب: «ســـفينة النَّجاة» للشـــيخ ســـالم بن سمير الحضرمي، ترجمه إلى العربية الأفريكانيَّة.

❖ مـــن الكتب أيضًـــا كتـــاب: «مطالعات لتدريـــس تلاميذ مدرســـة الحبيبيَّة»، وهو كتاب تعليميٌّ تربوي في توجيه النَّاشـــئة إلى الأخلاق الإســـلاميَّة، ومؤلِّفه الشيخ الإمام عبد الرَّحمن بن قاســـم جميـــل الدين، عام (١٩٠٧م)، وله أيضًا كتاب: «ترتيب الصَّلاة».

ومـــن أهمِّ التَّرجمـــات إلى اللُّغـــة العربيَّة الأفريكانيَّـــة، كتـــاب: «المقدمـــة الحضرميَّة» للشيخ عبد الله بن الشَّيخ عبد الرَّحمن بافضل الحضرمي، وهـــو في فقه العبـــادات، ترجمة الشَّـــيخ إســـماعيل حنيف، وللشَّيخ الحضرمي أكثر من عشـــرين كتابًـــا، طُبـــع معظمُها في القاهرة والهند.

هذا، وقـــد تداوَل المســـلمون فـــي المنفى الأفريقـــيِّ تلك المؤلَّفات فيمـــا بينهم، وكان لهم تمسُّكٌ شديدٌ بها، خاصَّة في الحقَب الأولى، وكان بُعدُهم عن الموطن الأصليِّ، وندرة المخطوطات آنذاك، وقلَّة القادرين على النَّســـخ، كلُّ ذلك كان ســـببًا لتمسُّـــكهم الشَّـــديد بتلك المخطوطات، وإضفاء شبه قدســـيَّة عليها. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا النَّشـــاط التَّأليفي قد بدأ مباشرةً مع رفع الحظر الشَّـــديد عن الإســـلام في أواسط القرن التَّاسع عشـــر الميلادي، واستمرَّ قوياً حتى أوائل القرن العشرين، حيث دخل في فترة ركود. (بحسب النَّماذج المتوفَّرة بين أيدينا).[1] وتجدر الإشـــارة إلى أنَّ هذه النَّماذج، هي مـــا كتبَ باللُّغة العربيَّة الأفريكانيَّة فحســـب، وفي رأس الرَّجاء بالذَّات. أمَّا المؤلَّفات الإسلاميَّة باللُّغات الأخرى كالأرديَّة مثلاً، -كتبها الهنود - فلا شكَّ أنَّها كثيرة.

ثانيًا: في المجـــال التَّعليمي (حركة التَّعليم الإسلامي)

جاء تطوُّر الحركة التَّعليميَّـــة طبيعيًّا بدءًا بالحلقات المنزليَّة «الـــدَّارات»، فالحلقات في المساجد، فالمدارس الحديثة. وهنا استعراضٌ لبعض تلك الأنماط:

٣ - حركة تحفيظ القرآن الكريم.

تعدُّ حركة تحفيظ القرآن الكريم أول حركة التزم بها عامة المســـلمين في جنوب أفريقيا، ولا يخفى مـــا في هذا الالتـــزام بحفظ كتاب الله تعالى مـــن قوَّة تكوينيَّة للمجتمع في تثبيت العقيدة والثَّقافة الإسلاميَّة. كانت حلقات حفظ القـــرآن تُعقد في بيوت المشـــايخ للرَّاشـــدين وللصِّغار.[2] ومن المشـــايخ الرواد في تحفيظ القـــرآن الكريم: الشَّـــيخ تُوانْ غورو، والشَّـــيخ إســـماعيل معاوية ماني، وكانا حافظَين للقرآن الكريم. بالإضافة إلـــى هذين الرَّائدَين ظهرت

(1) Heinrich Matthée. Muslim identities and political strategies: A case study of Muslims in the greater Cape Town area of South Africa, 1994-2000, (Kassel: University press GmbH, 2008), p95-96.

(2) -Davids, Achmat. Afrikaans of the Cape Muslims from 1815-1915, M.A. Thesis, University of Natal D/U, 72 Unpublished.

أسـماء كثير من المشايخ حفظة القرآن الكريم الذين تخرَّجـوا على أيديهما، منهم: الشـيخ محمـد صالح عبادي في كيبْ تاوْن، والشَّـيخ عبد الرحيم حسـن صالح، وكان عالمًا حافظًا شهيرًا في جوهانسبرغ.[1] بالإضافة إلى مشايخ وحفظة مرموقين من أصل هندي.

وأما في العصر الحديث، فإنَّ هذه الحركة قد نحتْ منحى مؤسَّسـيًّا أكثـر تنظيمًا على أيدي ثلة من المشـايخ الحفَّاظ، أمثال: الإمام عبد الملـك حمزة في جوهانسـبرغ، والإمام إسـماعيل طالب في ضاحية بريتوريا، والإمام عبد الحميد مالك الذي افتتح مدرسة لتحفيظ القرآن الكريـم بفريديدُورْب عـام (١٩٥٠م)، ومثله فعل الحافظ سليمان ميللر عام (١٩٥٤م)، بافتتاحه مدرسـة للتَّحفيظ في جوهانسبرغ. كما شـهدت نقلة كميَّة في المدارس الخاصَّة، مثل: مدرسـة الشيخ عبد الرَّحيم حسن صالح في فريديدُورْب-جوهانسبرغ، ومدرسة الشيخ عمر زرداد (ت١٩٧٥م)، ومدرسة الإمام إبراهيم أحمد فـي مسـجد رود بورت.[2] ومدرسـة الشيخ إسماعيل محمد حسن بمسجد نيوكلير (Newclare)، عام (١٩٧٠م)، ومدرسة الشَّيخ الحافظ عبد الرحمن مِيا (١٩١١-٢٠٠٥م).

ومن النَّتائج المباشرة لحركة التَّحفيظ في جنوب أفريقيا، وعلى الأقليَّة الملايويَّة خاصة، أنَّهـا حافظت علـى الكيان الإسـلاميِّ صلبًا قويًّـا، وحقَّقت للأقليَّة المسـلمة اكتفاءً ذاتيًّا في «الكوادر» البشـريَّة الإسلاميَّة. بل خرجت بجنوب أفريقيا من طور المحليَّة إلى العالميَّة، وتمثَّـل ذلك في ابتعاث بعض الأئمَّة وأسـاتذة تحفيـظ القرآن الكريم إلى الـدُّول المجاورة، وإلى أمريكا وأوربا وأستراليا.

٤ - التعليم الإسلامي.

جاء تأسـيس المـدارس الأولى في جنوب أفريقيا، وفـي رأس الرَّجاء خاصَّـة، متأخِّرًا جـدًّا بالنِّسـبة للحضور الإسـلاميِّ في هذه المنطقة؛ وذلك للحظر الذي كان مفروضًا على نشـاط المسـلمين، بينما كانت الحرية متاحة للمدارس التنصيرية المدعومة من قِبَل الكيان الاستعماريِّ الهولندي.

وكانت المدرسـة الإسـلامية الأولى هي مدرسـة الشَّـيخ توانْ غورو، التي أسَّسها إثر الإفراج عنه من السِّـجن عام (١٧٩٣م)، وأنشأ الملايو مدرسة شـارع دُورب (Dorp Street Madrasah)، في العام نفسه.

وعلـى الرُّغم من هـذا التَّأخُّـر، وحرية النَّشاط التَّنصيريِّ، فإنَّ المنصرين لم يحقِّقوا نجاحًـا يذكـر، في حيـن نجحت المدرسـة الإسلامية نجاحًا كبيرًا. يقول الباحث «روبرت شـيل»، فإنَّ المدارس الإسلاميَّة الأولى القليلة في رأس الرجاء، التي أنشـئت في عصر الرِّق، قد اسـتقطبت الأطفال «الملوَّنين» بعدد يفوق المؤسَّسات التَّعليميَّة المسيحيَّة في مستوطنة رأس الرجـاء مجتمعةً. وبلغ تعداد طلبة إحدى تلك المدارس التي أسَّسـها أحـد الأئمَّة عام (١٨٢٠م)، أكثر مـن (٣٧٠) طالبًا من الرَّقيق. ومدرسة أخرى للشَّيخ أحمد بنغلين (Achmat van Bengalen, d.١٨٤٣)، لتعليم أبناء السُّود المحرَّريـن والرَّقيـق «المحمدانيِّين» في كيب تـاونْ» بلغ تعداد تلاميذها (٤٩١) طالباً، وذلك في عام (١٨٢٥م)،[3] وبحلول عام (١٨٤٠م) بلغ عدد التَّلاميذ فـي رأس الرجاء قرابة (٢٤٥١) تلميذاً في بضع مدارس يُشـرف عليها عشرة من الأئمَّة.[4]

1) Da Costa, Yusuf et al, Pages from the Cape Muslim history, Cape Town: Shutter and Shooter, 1994, p. 21

2) Moegamat A. P. op. cit. p. 35.

3) Ibid. p.103.

4) See Moegamat A. P. op. cit. p.103.

ومن الإجـــراءات التـــي اتَّخذهـــا الكيان الاستعماريُّ لمحاربة التعليم الإسلامي إلزاميَّة إلحاق جميـــع الأطفال بالمدرســـة التنصيرية الهولنديَّة والإنجليزيَّة، ولم يجد المسلمون بُدًّا مـــن الانصياع لهذا القانـــون الملزم، غير أنَّهم كانوا ينزعون الأطفال من المدرسة حين يبلغون العاشـــرة.. «إنَّهم يرسلون الأطفال (المسلمين) الصِّغار إلى المدرســـة الهولنديَّة والإنجليزيَّة، ويبدي أولئك تفوُّقاً وذكاءً ملحوظاً، ولكنَّهم في ســـن العاشرة، يُســـحبون للالتحاق بمدارسهم الملايويَّة الخاصَّة، وفيها يدرســـون حتى سن الخامسة عشر».[1]

ناشد المســـلمون بريطانيا عام (١٨٥٥م) لدعم نشـــاطهم التعليميِّ بتوفير دعاة ومعلِّمين أسوةً بغيرهم، وبوصفهم من دافعي الضَّرائب؛ فكان إرسال العالم الكردي أبي بكر أفندي إلى رأس الرَّجاء. والذي قدم جهوداً ملموســـة في المجـــال التَّربويِّ والتَّعليمـــي، فقام ببناء بضع مدارس من بينها مدرسة في مدينة كيبْ تاوْن، مخصَّصة للبنات فـــي (١٨٧٠م)، وكانت تحت إشـــراف إحدى زوجاته.[2] وتلك كانت البداية الحقيقيَّـــة للمـــدارس الإســـلاميَّة بمفهومها الحديث.

وعلى ســـبيل الإجمـــال، فـــإنَّ المدارس والمؤسَّســـات التَّعليميَّـــة الحديثـــة في جنوب أفريقيـــا اليوم تزيـــد على (٦٠٠) مؤسَّســـة، تشمل المدارس الابتدائيَّة، والثَّانويَّة، والمعاهد الأهليَّـــة، والكليَّـــات المتخصِّصـــة، وأقســـام الدِّراسات الإســـلاميَّة في الجامعات الوطنيَّة والأهليَّـــة، وتُصنَّـــف بعض تلك المؤسَّســـات التَّربويَّة على أنها أفضل المؤسَّسات التَّعليميَّة في جنوب أفريقيا.[3] بالإضافة إلى ذلك يحتلُّ الدَّارسون في تلك المؤسَّسات الإسلاميَّة مراكز الصدارة في الامتحانـــات الوطنيَّة بالدَّولة.[4] وتشـــتهر جنـــوب أفريقيا بمنهج تربـــويٍّ قويٍّ خطَّطه تربويُّون مســـلمون، وقـــد اعتمده كثيرٌ من المسلمين في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وفي بريطانيا، وفي دول الجنوب الأفريقيِّ، وفي بنغلاديش وغيرها من الدُّول.

ومـــن المؤسَّســـات التَّربويَّـــة العاليـــة سلســـلة مدارس وكليات «دار العلوم»، وتخرِّج المتخصِّصيـــن في الدِّراســـات الإســـلاميَّة، والأئمَّة الخطبـــاء والتَّربويِّيـــن. ومنها الكلية الإســـلامية في جنوب أفريقيا، وقســـم اللُّغة العربيَّـــة -حديثًا- بجامعة «ويســـترنْ كيبْ»، ومؤسَّســـة دار الأرقم الإسلاميَّة، وتقدم برامج دبلوم عام في الدراســـات الإســـلاميَّة، ودبلوم عالٍ في اللغة العربية، وليســـانس في العربية والشريعة.

تجدر الإشـــارة بصورة عامة إلـــى أنَّ اللُّغة العربيَّـــة قد اعتُمـــدت في المرحلـــة الجامعيَّة بجامعة جنـــوب أفريقيـــا (UNISA)، منذ عام (١٩٥٦م) بوصفها لغة ســـامية، وكذلك بجامعة دوربـــان (UD-W)، في الســـتينيات من القرن الماضـــي، وفي جامعـــة رأس الرجـــاء الغربية (UWC)، منـــذ عـــام (١٩٧٥م)، إلا أن تدريس اللغـــة العربيَّة فـــي تلك المؤسَّســـات لم يحظ بالتَّطوير المأمـــول في محتواه وفي أســـاليبه ووسائله مقارنةً باللغات الأخرى. ناهيك عن أنَّ هذه المســـيرة كانت بأيدٍ يهوديَّة في ظلِّ غياب أهل العربيَّة.

1) Robert Shell. Madrasahs & Moravians: Muslim Education Institutions in the Cape Colony 1792-1910, New Contree No. 51 (May 2006), University of the West Cape, p.106.

2) See. Moegamat Abdulrahgiem Paulsen, The Malay Community of Gauteng, (MA), 2003,. P. op. cit. p.110

٣) من ذلك مدرسة أزادفيل (Azadville) الإسلاميَّة. وتصنف بأنها أفضل مؤسَّسة تعليميَّة أهليَّة في جنوب أفريقيا.

4) Moulana Ebrahim I. Bham, "Muslims in South Africa", op. cit.

ثالثاً: في المجال الاقتصادي والاجتماعيِّ والمؤسَّسات المدنيَّة:

تعود جذور العمل الخيري وخدمة المجتمع في جنوب أفريقيا إلى الفترات الأولى من دخول الإسلام إلى رأس الرَّجاء، كما سبقت الإشارة إلى بعض صورها لدى المشايخ الأوائل. ويعود النَّجاح الرَّاهن في العمل الخيريِّ المؤسَّسي إلى تلك الجذور الثَّابتة، والخبرات القديمة.

ويشار في هذا الصَّدد إلى أنَّ المساجد الجامعة التي تتجاوز ستمائة مسجد في جنوب أفريقيا تقوم بأدوارٍ اجتماعيَّة، وتربويَّة كثيرة، من رعاية للفقراء، وإيواءٍ للعجزة، وتقديم دروسٍ وبرامج تدريبيَّة مختلفة، وتتقاطع أعمال المساجد بأنشطة المؤسَّسات الخيريَّة الكثيرة، منها على سبيل المثال: جمعيَّة مسلمي جنوب أفريقيا (SMA) التي أنشئت عام ١٩٠٣م، وهي صاحبة السَّبق في إنشاء كثير من المدارس. ومن أكبر المؤسَّسات كذلك: اتِّحاد التُّجار ورجال الأعمال المسلمين (AMMTA)، والذي أنشئ عام ١٩٠٦م، واتحاد علماء المسلمين في جنوب أفريقيا عام ١٩٢٣م.

ولا شكَّ أنَّ تلك المؤسَّسات قامت على قواعد متينة من الأسس الاقتصادية؛ فقد تميَّز المسلمون في جنوب أفريقيا منذ فترة الرِّق بالانخراط النَّشط في المجالات الاقتصاديَّة، بدءاً بالمشايخ السُّجناء المنفيِّين؛ إذ كان معظمهم –بعد الإفراج عنهم– أصحاب أملاك وتجارة وظَّفوها في العمل الدَّعويِّ. فعلى سبيل المثال، يذكر أنَّ العدد التَّقريبيَّ للعبيد الذين نالوا حريَّتهم بمستوطنة الرَّجاء عام (١٨٢٠م)، بلغ قرابة ألف وتسعمائة شخص، وكان مجموع ألف وستمائة من أولئك أصحابَ حِرَف وأملاك،[1] أضفْ إلى ذلك أنَّ الهنود الوافدين إلى جنوب أفريقيا بعد عام ١٨٣٨م كان معظمهم تجَّارًا. وقد استمرَّ هذا التَّقليد لدى المسلمين؛ فغدوا أصحاب رؤوس أموال ضخمة في العقارات، والزِّراعة، وصناعة الملابس، وتوكيلات السَّيارات، وغيرها. ومن المؤسَّسات الاقتصاديَّة الخيريَّة: بنك البركة، ومؤسَّسة الأوقاف الوطنيَّة ٢٠٠١م، وشركة التَّكافل ٢٠٠٣م. ومن إيجابيَّات ذلك عمل الحركات الإسلاميَّة بهدوء، وبرؤية محلية واقعيَّة بعيداً عن الوصايا الخارجيَّة، والصِّراعات المذهبيَّة وخاصة في العالَم العربيِّ، والتي تجرُّ ذيولها على الحركات والمؤسَّسات الإسلاميَّة في العالَم الإسلاميِّ خارج الوطن العربيِّ.

رابعًا: في المجال السِّياسيِّ ومقاومة المحتل:

للمسلمين في جنوب أفريقيا باع طويلة في التَّاريخ السِّياسي والنضال من أجل الحريَّات، بل إنَّ الوجود الإسلاميَّ الأول هناك كان نتيجة صراع المسلمين من أجل تأكيد الحريَّات، وتحرير المستضعفين،كما سبق بيانُه في فقرة ظروف دخول الإسلام إلى رأس الرَّجاء.

أمَّا في العصر الحاضر، فإنَّ فترة النِّضال من أجل الاستقلال قد سجَّلت أسماء الكثير من الرِّجالات من قادة الشَّباب المسلمين، جنباً إلى جنب مع حركات مناهضة الحكم العنصريِّ، وليس بوُسع أيِّ مؤرِّخ أن يتناول حركات مناهضة الحكم العنصريِّ، ويؤرِّخ لجنوب أفريقيا دون أن يقف عند قامات سامقة من المسلمين المناضلين أمثال: الإمام عبد الله هارون،

(1) Heinrich Matthée. Muslim identities and Political Strategies: A case Study of Muslims in the Greater Cape Town area of South Africa, 1994-2000, Kassel) University Press, 2008), p71.

وأحمد تيمولّ اللَّذيـــن قُتلا على أيدي الجيش العنصـــريّ.[1] ومنهم: إبراهيـــم إبراهيم الذي أمضى عشرين ســـنة بالسِّجن، وأحمد كاثرادا (Kathrada) الذي قضى كذلك عشـــرين سنة في سجن روبن، وأمثالهم من السِّياسيِّين بحركة الكونغرس الأفريقيِّ الوطني (ANC)، والشـــيخ مولانا كشاليا (Cachalia)، لقدكانت تضحيات أولئك وأمثالهم جســـرًا إلى عصـــر الحريَّة... بجنوب أفريقيا (١٩٩٤).[2] ولا يزال المسلمون نشـــطين في العمل السِّياســـيِّ، فهناك وزراء مسلمون، ونُوَّاب ومحامون.

خامساً: في المجال الإعلامي:

يوجد للمســـلمين في جنوب أفريقيا نشاطٌ إعلامـــيٌّ قويٌّ في النشـــر الصحفي، وفي نشـــر الكتـــب، والمحطَّات الإذاعيَّة المحليَّة، مثل: راديو إســـلام، وراديو ٧٨٦، وصوت الكيب (Voice of the Cape)،[3] وغيرها من المؤسَّسات الإعلامية.

ختاماً لهـــذا الجانب من بيـــان الإنجازات المتحقَّقة فـــي التَّاريخ الإســـلاميِّ في جنوب أفريقيـــا، نذهب إلى أنَّ الأقليَّة المســـلمة في جنوب أفريقيا تُعدُّ اليوم نموذجًا يحتذى لكثير من مثيلاتها من الأقليَّات المســـلمة في العالَم بما حقَّقته من نجاحات سياســـيَّة واجتماعيَّة، واقتصاديَّة، وغيرها من أوجُه النَّجاحات.

■ تـــحـديـاتٌ وفُـرصٌ أمـــام الـدَّعـوة الإسلاميَّة بجنوب أفريقيا:

هنـــاك جملةٌ مـــن التَّحديَّـــات التي تواجه المجتمع المسلم في جنوب أفريقيا، في مختلف مجالات الحياة، وهي كثيرة، وفي الفقرات الآتية بيانٌ لبعضها.

أوَّلاً: تحدِّيات اقتصاديَّة:

على الرُّغـــم ممَّا تميَّز به مســـلمو جنوب أفريقيـــا من انخراطٍ نشـــط فـــي المجالات الاســـتثماريَّة منـــذ عصـــر الـــرِّق، ونجاحهم النِّســـبي في التجارة، فإنَّ ثمة تحدِّيات لا تزال تعتـــرض انخراطهم الحقيقيِّ في صلب الجهاز الاســـتثماري في القطاعات الكبـــرى بالبلاد، مثل: قطاع المناجم والتَّصنيـــع. وهذا التَّأخر راجع -في الواقع- إلى السِّياســـات العنصريَّة المتعاقبة التي منعت دخول غير المســـتوطنين البيض في أنشطة اســـتثماريَّة معيَّنة. ومعلومٌ أنَّ هـــذه السِّياســـة قد انتهت وزالـــت، إلا أن اختـــراق المســـلمين للجهـــاز الاقتصادي في القطاعـــات الكبرى لا يـــزال ضعيفاً؛ حيث إنَّ الشَّركات الكبرى تستحوذ على الفُرص في تلك القطاعات، مع تدنِّي رؤوس الأموال الإسلاميَّة في هذه المجالات.

ثانيًا: تحدِّياتٌ اجتماعيَّة.

لا تكاد التَّحدِّيات الاجتماعيَّة لدى مسلمي جنوب أفريقيا تختلف عنها لدى عامَّة الشَّـــعب - مســـلمين وغير مســـلمين -، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى ما تركته سياســـة التَّمييز العنصري من ترسُّبات في المجتمع؛ حيث قُسِّم المســـلمون قسْرًا -في ظلِّ تلك السِّياسة- إلى تجمُّعات عرقيَّة تعيش في كانتونات وغيتوهات (ghettos)، وعلى الرُّغم من شجب المسلمين جميعاً لهذه السِّياسة، ووعيهم بضرورة الخروج عن تلك الدَّوائر الجائرة التي رسمتها السِّياسة العنصريَّة، فإنَّ خيـــوط «العرقيَّات» قد تمكنت بقوة من النَّســـيج الاجتماعـــيِّ، وتكوَّنت أجيالٌ في ظل هـــذا الواقع، وتعلَّمت فـــي «المدارس العرقيَّـــة»، فأصبح من الصَّعب الخروج النِّهائي

(1) See for instance: Stephen Ellis, Tsepo Sechaba, Comrades against apartheid: the ANC and the South African Communist Party in exile, (Currey Publishers, 1992), p72.

(2) See: Roger B. Beck. The history of South Africa, (Greenwood Publishing Group, 2000).

(3) See: David Chidester, Abdulkader Tayob, Wolfram Wei, Religion, politics, and identity in a changing South Africa, (Waxmann Verlag, 2004), p125-.

من هذا الواقع، ولكن المغالبة مستمرة للتَّخلُّص من الأفكار والممارسات التي توسِّع الفجوة بين الأعراق المتعدِّدة في مجتمع الجنوب الأفريقيِّ.

وربما يقدر للملايو أن يقوموا بدَوْرٍ ملموس في تحقيق الوئام الاجتماعيِّ؛ لظروف تاريخيَّة في صالحهم، منها أنَّ ما يُطلق عليه «ملايو» هويَّة موسَّعة، تضم أنواعاً من الثَّقافات والأجناس المختلفة من أبناء الرَّقيق المنحدرين من آسيا الشَّرقيَّة، وجنوب شرق آسيا على السَّواء، والموزمبيق، والعرب، والخويّ سانْ، أي أنَّ كلمة «ملايو» ترادف كلمة «مسلم» غير هندي.[1] إن التَّداخُل العرقيُّ بين الملايو وبين كثير من الأجناس، يجعلهم في موضع جيِّدٍ لتحقيق الانسجام بين الجميع. هذا بخلاف الهنود -مثلاً- الذين لم يتمتَّعوا -في الغالب- برؤية إيجابيَّة لدى السُّود؛ لكونهم -في نظر أولئك- مستغلِّين مثل البيض المستعمرين.[2] وقد أضرَّ ذلك في فتراتٍ كثيرةٍ بالدَّعوة،[3] وبرؤية السُّود إلى الإسلام على أنَّه «دينٌ استعباديّ»، أو «دينُ الهنود العنصريِّين».[4]

■ الأفارقة السُّود فرصة دعويَّة:

من الفرص الدَّعويَّة في جنوب أفريقيا اليوم، إقبال الأفارقة السُّود من قبائل الزُّولو، والخوسا، وغيرهم على الإسلام، ولم يتسنَّ لنا الاطِّلاع على إحصائيَّة حديثة ودقيقة عن نسبة المسلمين السُّود فيها، غير أنَّ دراسة عام٢٠٠١م تشير إلى أنَّ عددهم بلغ قرابة (٧٠١, ٧٤) نسمة.[5] وقد عدَّت حقبة الثمانينيَّات والتِّسعينيَّات من القرن الماضي، فترةً نشطة في إقبال السُّود المطَّرد على الإسلام، غير أن ذلك لم يكن -مع الأسف- ناتجاً عن نشاط دعويٍّ حقيقيٍّ داخل البلاد، وإنَّما عن ظروف أخرى غير مباشرة، مثل نزوح كثير من الشَّباب إلى موزمبيق وملاوي فرارًا من الحكم العنصريِّ، و هناك اعتنقوا الإسلام.[6] ولا شكَّ أنَّ إسلامُ بعض الأفارقة السُّود، وهم يمثِّلون نسبة (٧٥٪) من مجموع السُّكان، يمثِّل كسبًا دعويًا استراتيجيًا، يرفع من شأن المسلمين من حيث العَدد والعُدد. وهناك بعض المقالات والتَّقارير التي تؤكِّد تزايُد إقبال الأفارقة السُّود على الإسلام، خاصَّة في صُويتُو وغيرها؛ لما وجدوا فيه من قيم نبيلة، وحلولٍ للمشكلات الاجتماعيَّة من إجرام، ومخدرات، وفقر، ومرض الإيدز، وعنصريَّة وتمييز بين الأعراق والأجناس.. وغير ذلك من المشكلات.[7]

■ خلاصة

بهذا العرض لتاريخ الإسلام والمسلمين بالجنوب الأفريقيِّ، والتَّركيز على جمهوريَّة جنوب أفريقيا، باعتبارها النَّواة الحقيقة للإسلام بهذه المنطقة، نجد أنَّ حالة المسلمين بهذه المنطقة، تؤكِّد لنا حقيقةً اجتماعيَّة ثابتة، وهي عدمُ وجود ارتباط عضويٍّ ضروري مباشرٍ بين وضع الأقليَّة وبين الواقع الدِّيموغرافي (الديناميات المتعلقة بحقوق السكان) بمعنى أنَّ الكثرة أو القلَّة، لا تقوم عاملاً ضروريًا لاعتبار مجموعةٍ عرقيَّة أو دينيَّة معيَّنة أقليَّة أو أكثريَّة،

(1) Muhammed Haron. "Conflict of Identities: The Case of South Africa's of Cape Malays", paper presented at the Malay World Conference, K.L, 12-14 Oct., 2000.

(2) Vawda, 1993: Multiple Communities, p.4 quoted from. p49.

(3) Heinrich Matthée. Muslim identities, op. cit, p105.

(4) Yusuf Ahmed, "South African Muslims, Is Apartheid›s Spirit Alive?" On: March 16, 2006, www.islamonline.net.

(5) See: Muhammed Haron, Islamic Culture Amongst the Ngun People, (Dept. of Arabic Studies, Unv. Of Eastern Cape, SA, 1998).

(6) Multiple Communities? Muslims in Post-Apartheid" South Africa", p4.

(7) See for instance: http://www.csmonitor.com/2002/0110/p13s1-woaf.html

وإنَّمـــا يحكم ذلك قوَّة العُـــدَد، ودرجة التَّنظيم الاجتماعـــيِّ التي حقَّقتها المجموعة في ظرف تاريخيٍّ محدَّد من وجودها. ولعلَّ مصداق ذلك قول ذي العـــزَّة والجلال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَـــةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. (البقرة:٢٤٩). ومن الأمثلة القريبة في ذلك، أنَّ ما كان يعتبر أقليَّةً فـــي فترة الحكم العنصريِّ فـــي جنوب أفريقيا، أي (الزُّنوج) كانوا يمثِّلون قرابة ٨٠٪ من مجموع السُّـــكان، ولكنَّهم –على الرُّغم من ذلك– كانوا يعدُّون أقليَّة مضطهدة.[1]

فالمسلمون في جنوب أفريقيا خاصَّة، وإنْ كانوا لا يتجاوزون كثيرًا نســـبة٢٪ من مجموع الســـكان، فإنَّهم أقليَّة معتَبرة، لها وزنها وقوتها في المجتمع، وما ذلك إلاَّ – بتوفيق من الله – ثمَّ صبر على المكاره، وعمل دؤوب. ولعلَّ التَّهديد الشَّرس للوجود الإسلاميِّ بجنوب أفريقيا منذ أنْ حلَّ بها المسلمون هو ما أرهف حساسيَّتهم لمواجهة هـــذا التَّحدي، والتعامـــل بحنكة مع معـــادلات صعبة، كالتَّوازن بيـــن الاندماج وبين عدم الذَّوَبان في الأكثريَّة، وحتى يبقى هذا البناء الإسلاميُّ – الذي بناه السَّابقون – صامداً، فلا بـــدَّ من العناية به، والدعوة إليه. ولا شـــكَّ أنَّ الفُرص للمسلمين في الجنوب الأفريقيِّ متاحة، وأكبـــر تلك الفـــرص مرونة شـــعوب المنطقة –إنْ لم نَقلْ القارَّة– وتقبلهم للإســـلام، وتجنيد أنفسهم لخدمته والدَّعوة إليه.

هذا وصلَّى الله على ســـيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

1) Odd-Bjørn Fure. "How to Integrate Minority Narratives into National Memory?" HL-senteret - EPHE, Sorbonne, Oslo, May 2008. p. 3.